العرب
الجمعة 2020/08/28
السنة 43 العدد 11803

الشعبويّة في عالم الأضواء الزائفة

لا رهان إلّا على العقل والمعرفة لمواجهة الشعبويّة

الشعبويّة وباء يجعل الناس متشابهين

هل حقّاً إنّه زمن القادة الشعبويّين، زمن الأدباء الشعبويّين، زمن الشعارات الشعبويّة، ومحطة التغطية على الهزائم بالضجيج المفتعل وإلقاء الاتّهامات على الآخرين، وجعلهم ذريعة لتبرير الخسائر التاريخية، أو الراهنة، بحيث يكون القناع أداة للإقناع، والتشهير في الوقت نفسه. هل أصبحت الشعبويّة ملحَ العالم الافتراضيّ، والواقعيّ؟ وهل هي أفضل طريقة لتحصيل مكتسبات سريعة؛ عبر اللايكات والتعليقات؟ كثيرة هي الأسئلة التي يثيرها هذا المصطلح.

هيثم حسين
كاتب سوري

يبحث الشعبويّ عمّا يضمن له الاستمرار في موقعه، ويتّخذ الآخرين دريئة من أجل حماية مصالحه، أو تعزيزها، متاجراً بهم وبالشعارات التي تلهيهم وتعميهم وتبقيهم مشتّتين تائهين خلف أسوار التجهيل وتحوير الحقائق والتعتيم على نقاط يمكن أن تكشف الأسرار المخبوءة التي من شأنها فضح مزاعمهم وتعرية ادّعاءاتهم.

في ظلّ الشعبويّة، ولدى الشعبويّين، ليس هناك ما هو أسهل من إطلاق الأحكام المطلقة، والتجرّؤ على الأعراض، من دون أيّ إحساس بالمسؤولية.. والشعبويّة الرخيصة –وكلّ شعبويّة رخيصة بالضرورة ولكن بنسب متفاوتة– سلاح المفلسين من عشّاق الأضواء الزائفة العامية، وهي تعكس صورهم التي يحاولون التعتيم عليها وترقيعها في مرآة مخادعة.

وباء أم ترياق

يكمن ديدن الشعبويّين في توجيه الاهتمامات، وصبّها على أفكار وشعارات ونقاط بعيدة عن الحقائق والوقائع، وتضخيم تفاصيل صغيرة لتهميش الصورة الكاملة، أو التي تبدي الحقائق بوضوح، لأنّها تخدم الزيف الذي يتمّ الاختباء خلفه.

> الشعبويّون يكرسون أفكارا وشعارات بعيدة عن الحقائق والوقائع عبر تضخيم تفاصيل صغيرة لتهميش الصورة الكاملة

لا تحتاج الشعبويّة إلى تأمّل أو تفكير، بل هي تعطل التأمّل لدى من تستهدفهم وتوقف التفكير لصالح فرض الوصاية لتمرير غايات وأهداف بعينها، وهي غالباً ما تدور في فلك التحايل والالتفاف على حقائق التاريخ ووقائع الراهن.

في لعبة إلقاء الأقوال غير المنضبطة التي تناغي المشاعر المتطرّفة، أو تغذّي الأحقاد الدفينة وتقوم بتظهيرها لتشكّل محطّات للتملّص من المسؤوليات الأخلاقية، بعيداً عن أي التزام من أيّ نوع، يقوم الشعبويّ بتضخيم نقطة يمكن أن تكون إشكالية، أو تساهم بالترويج له من جهة اعتباره نفسه الحامي للمصالح العليا، والحائز على ثقة جماهيره، والحريص على التشبّث بها، في الوقت الذي تكون متاجرته بكلّ شيء من أجل تعزيز مكانته وتدعيم حضوره، والتغطية على ما يمكن أن يشكّك به قولاً أو فعلاً، وتفنيده بطريقة دعائية بعيدة عن المنطق والموضوعية.

الشعبويّة أقرب إلى الوباء في حين يصوّرها المتاجرون بها على أنّها بمثابة ترياق، وذلك لأنّها تحمي ما يفترضون أنّه يمثّل جدران حماية بالنسبة إليهم، يحميهم من الخارج، ويبقي صورتهم المتخيّلة بعيدة عن المتناول، أو أنّها تساهم بإنقاذ هويّتهم الموهومة، وذلك كلّه من غير تحديدها باسمها، وفي مسعى دؤوب للابتعاد عمّا من شأنه أن يكشف عريهم ومتاجرتهم وتلاعبهم بعقول مَن يعتبرونهم غوغاء يسهل قيادهم، أو من ينساقون وراء الإيهام والتضليل بمعنى قاتل وسعادة خلبية.

وتوصف الشعبويّة بالوباء لأنّها تنخر بنية المجتمعات نفسها، أو تلعب دوراً في تسعير الأحقاد بين مجتمع أو شعب وآخر، بناء على اتّهامات وتلفيقات تخدم الشعبويّ وتيسّر له السبيل لتحقيق أهدافه بالسيطرة والتفتيت، من دون اكتراث بالمسؤولية التاريخية، وبعيداً عن الاستماع لصوت العقل، والتعالي على الضغائن أو تخفيف حدّتها بوضعها في سياقها من دون تجيير أو مبالغة أو تضخيم.

تتأجّج الشعبويّة في المعارك الانتخابية غالباً، حيث يلجأ بعض المرشّحين إلى النيل من خصومهم عبر كيل اتّهامات مختلقة بحقّهم، ومناغاة غرائز الجماهير الباحثة عن الضجيج المفتعل، حيث تجد ضالتها في الشخص الذي يشعر بالانتماء إلى هذه الفئة التي يحاول توسيع رقعة انتشارها وتأثيرها في المجتمع، بحيث يقسّم الناس إلى مريدي الشعبويّة وضحاياها.

التصنيف الحدّيّ يكون منجاة للشعبويّين، حيث يجدون أنفسهم في مواجهة فرض قيود واضحة على المصنّفين في خانة الأتباع أو الأعداء، ويكون لكلّ خانة تعامل خاصّ بها ومعها، فالأتباع يكونون مصنّفين في العتمة وتحت السيطرة، توضع عصابة على أعينهم، وتتمّ دغدغة مشاعرهم البدائية المعزّزة للعدوانية والمحرّضة على التفاخر والتباهي والنرجسيّة، في حين أن القيود المعادية والاتهامات تُلقى على الآخرين المصنّفين في إطار الأعداء.

درب للاستبداد

يحرص الشعبويّ على تعزيز فكرة أنّ الآخرين هم الجحيم، وأنّ النعيم الموهوم يكون بعيداً عنهم، لذلك لا بدّ من رفع الأسوار في وجههم، والاشتغال على تسييد الأفكار والقيود التي تكون أدواته للهيمنة، ليرسم معالم فردوس على مقاسه له ولأشباهه.

الأضواء الزائفة تكون حقيقية للشعبويّ، وعامية لأتباعه ممّن يتوهّمون أنّهم بصدد بناء عالمهم المنعزل البعيد عن الآخرين، الذي يلغي التنوّع ويرتكن لسطوة اللون الواحد، بحيث تتحوّل الحياة إلى جانب يتيم، يلغي جمالية التنوّع وبهجة الألوان المتعدّدة وخصوصيّتها وفرادتها وتمايزها.

الشعبويّ يمضي في طريقه ليكون مستبدّاً، تكون شعبويّته خير سلاح لتكريس استبداده، وذلك كلّه بذريعة الحماية، ومن منطلق الوصاية البائسة التي تجد في الجميع قصّراً لم يبلغوا الرشد، ولن يبلغوه، لأنّ هناك من ينهض بالمسؤوليات كلّها ويتحمّل مشقّات الأعباء التي تثقل كاهله، ليبقيهم في عالم الوهم، راسماً لنفسه صورة المضحّي ضمناً.

والأنظمة الشمولية شعبوية بالضرورة، لأنّ الشعبوية خير أداة للدكتاتوريين لتبرير مساعيهم لإبقاء بلدانهم مغلقة بعيدة عن أيّة تأثيرات أخرى، وكلّ آخر يستبطن العدّو من وجهة نظرهم، لذلك من الخير لهم الابتعاد عن مصادر الخطر ومظانّ الشرور المحتملة.

> كيف نواجه الشعبويّين؟ هل تمكن مجادلتهم بالعقل؟ وهل هناك أمل في تغيير وجهات نظرهم أو تقليص عدوانيتهم؟

كيف تتمّ مواجهة الشعبويّين؟ هل يمكن مجادلتهم بالعقل والمنطق؟ إلى أيّ حدّ هناك أمل بتغيير وجهات نظرهم أو الحدّ من عدوانيتهم تجاه الآخرين؟ كيف يمكن التعاطي مع هؤلاء الذين يحاولون التفشّي بين ثنايا المجتمعات بذرائع مختلفة مختلقة؟ هل نخوض معاركنا السلميّة لنتحدّى جنونهم أم نذعن لاجتياحهم ونرضى به؟

لا يوصف الأمر بأنّه "نهر الجنون" وأنّه لا مناصّ من شرب ماء النهر، والاكتواء بالجنون، لأنّ تعديم الخيارات يعني إعدامَ الحياة نفسها، ويلغي أيّ أمل بالتغيير المنشود في المستقبل، ويمنح مفاتيح السيطرة للشعبويّين كي يستبدّوا كيفما شاؤوا، ويكرّسوا مفاهيمهم لعالم يحرصون على تحويله إلى "مزرعة الحيوانات" أو إلى سجن كبير لا حرّية أو قرار فيه لأحد من نزلائه.

ولا يتعلّق بوضع إطار محدّد مقيّد ولا أيّ تعريف مدرسيّ يهيّئ لشرعنة البؤس، بل تراه أقرب إلى مواجهة مفتوحة عبر التاريخ، وخلال الحاضر وما يحمله المستقبل في طياته، لأنّ هذا النسق من التفكير يكتسب تجدّده وحضوره كلّ مرّة مكتسياً شكلاً مختلفاً، ولاعباً في مناطق ظلامية.

لا رهان إلّا على العقل والعلم لمواجهة الشعبويّة وتعرية مزاعم الشعبويّين وادّعاءاتهم، بحيث تكون الحجّة كاشفة للخلل الذي يعتري تفكيرهم وشعاراتهم، من دون التورّط في المجابهة بالأسلوب نفسه، لأنّ الانزلاق إلى الساحة التي يريدها الشعبويّ، والتي يتميّز فيها بطريقته، يعني التماهي معه، وإعطاءه الأفضلية لتوسيع تأثيره ونفوذه.

القصيدة العربية المعاصرة تنفتح على خارج الشعر

عمان – صدر حديثاً للشاعر والأكاديمي اللبناني شربل داغر كتاب جديد تحت عنوان "خارج القصيدة.. بين تلفُّظ المتكلم والتعالق مع الغير"، عن دار "خطوط" للنشر والتوزيع والترجمة بعمان.

ومما جاء في كلمة الناشر عن الكتاب "أهمل النقد، بل أسقط، في مدارس ومقاربات خارج القصيدة، ما جعل هذا الكتاب غير مسبوق بحثياً، هذا ما انطلق منه كتاب الدكتور شربل داغر، فعمل على بلورة هذا المفهوم ابتداء من نظريات الشعر ومن نظريات النقد، فالقصيدة في حسابه تتلفظُ العالم، وتتوجه إلى الغير، ما يقيم علاقات حيوية بينهما".

وعالج داغر علاقات القصيدة العربية بخارجها، في المكان الاجتماعي الطلل، والمجلس، والشارع، ثم في المكان السياسي، ما ظهر في الأزمنة الحديثة في: الأمة، والكيان، والوطن. كما عالج الكتاب كيف أن القصيدة خرجت لبناء علاقات مختلفة وجديدة لها مع العالم والإنسان من خلال انفتاحها في البناء والرؤية والتمثّل، وعبر أساليب متأتية من خارج ثقافتها، مثل قصيدة النثر، ومن خارج الشعر نفسه، من الصورة الزخرفية والتشكيل والسينما.

تجدر الإشارة إلى أن شربل داغر من مواليد 5 مارس 1950، وهو شاعر وكاتب وروائي وأستاذ في جامعة البلمونْد في لبنان، وخريج جامعة السوربون الجديدة، ويحمل شهادتَي دكتوراه في الآداب العربية الحديثة وفي فلسفة الفن وتاريخه. له ما يزيد على ستين كتابًا باللغتين العربية والفرنسية، وفي الأدبيات له العديد من المنشورات منها "العربية والتمدن في اشتباه العلاقات بين النهضة والمثاقفة والحداثة" وكتاب "الشعر العربي الحديث: قصيدة النثر" الفائز بجائزة الشيخ زايد للكتاب (الفنون والدراسات النقدية 2019).

الشكل الأجمل للشعر العربي لم يكتمل بعد

بعد رموز الحداثة الشعرية العربية من بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وغيرهما في خمسينات القرن العشرين ومن تبعهم في السبعينات، جاء شعراء عقد الثمانينات الذين حملت نصوصهم كل أدوات الكتابة ومعطيات الإبداع دون أن تنال حظها من الشهرة كسابقيهم فكانوا ينحتون في صخور الكلمة ويتفوقون على ذواتهم بقصائد تستحق الشهرة والضوء، ومن هؤلاء أمير سماوي.

الشاعر سماوي الذي عشق القراءة منذ طفولته أوضح في مقابلة معه أنه بدأ الكتابة الشعرية مبكرا متأثرا بالشعر الصوفي، ليبدأ تجربته مع الشعر العمودي مطلعا على الشعر العربي من الجاهلية حتى الفترة المعاصرة، فاكتسبت قصائده صفة التنوع متناولة أغلب أنواع الشعر، لافتا إلى أنه نال الموافقة على طباعة مجموعة شعرية وهو في الرابعة عشرة من العمر.

وفي مرحلة لاحقة أعجب سماوي بشعراء غربيين كثيرين، مثل إدغار آلان بو وبول فاليري، فكانوا مقدمة لاعتماده الحداثة والخروج من الشكل التقليدي مع دراسة أعمال الشعراء العرب المعاصرين، أمثال أدونيس والسياب ونازك الملائكة، ورؤاهم الشعرية والنقدية حيث نشر أول محاولة له ضمن هذا النوع نصا بعنوان "قبة الكون" عام 1980.

وحفل ديوان سماوي الأول الذي نشره سنة 1989 والذي وسمه بـ"أبراج العدم" بقصائد نثرية عدا قصيدتين عموديتين إضافة إلى قصائد منوعة تجمع النثر والتفعيلة والعمودي مع الحفاظ على وحدة نسيجها العضوي بين الشكل والمعنى.

ورغم أن سماوي يرى أن ما يسمى الأدب الوجيز وقصيدة الومضة والقصة القصيرة جدا جاءت لمراعاة ثقافة العامة وإبعاد الناس عن النص الحقيقي، وأنها تسهم في تدمير الذائقة الجمالية، إلا أنه في الوقت نفسه يشير إلى أنه ليس ضدها بالمطلق حيث تحتوي أعماله بعضا منها والمكتملة معنى ومبنى من دون أن يكتفي بها ويستبعد القصائد الطويلة كما هو سائد حاليا.

وعن علاقته بالصوفية يوضح أنه تأثر بشاعر الهند طاغور الذي وجهه ليرى النظرة الصوفية للحياة المليئة بالإحساس والمبهجة بالجمال، فكان يمزج الفرح والحزن معتبرا أن الصوفية هي حالة الفرادة والجدارة الإنسانية والقيمة الروحية والنفسية للإنسان.

ويجد سماوي أن معظم الشعر العربي الحديث عاش قلقا متأثرا بالواقع الاجتماعي والسياسي ونسي أن يركز على الوجدان الإنساني وعلى لغة الحياة الصافية للإنسان العربي، فانقطع تواصل هذا الإنسان مع كل جماليات الأدب واقتصرت على اسم الكاتب وعنوان نصه.

وعن قصيدة النثر يعتقد سماوي أن فرسان الحداثة لم يكتبوها بشكلها الأنقى، لافتا إلى تجارب أنسي الحاج وسنية صالح وسليمان عواد، أما محمد الماغوط فكتب القصيدة الاجتماعية القلقة التي لم تسمح لها الظروف بالنضج، مؤكدا أن هذه القصيدة خاضعة لمقدرة الشاعر التخيلية التي يجب أن تعوض عن الموسيقى الخارجية بالتخيّل، إضافة إلى تعدد المعاني ولو اتهمت بالغموض والمجازية المفرطة مع ضرورة أن تنتمي إلى الواقع الاجتماعي وتحمل الحكمة والعرفان الروحي والعقلاني والعاطفة معا.

> الشعر العربي الحديث عاش قلقا متأثرا بالواقع الاجتماعي والسياسي ونسي أن يركز على الوجدان ولغة الحياة الصافية

وعن كتابه النقدي "اتجاهات الشعر العالي" يبين سماوي أنه درس فيه تجارب عدد من الشعراء كدرويش وأدونيس ونزار قباني والبياتي وصلاح عبدالصبور وآخرين، واضعا رؤية بما يملكه من ذائقة نقدية لتصور أفضل للنص الشعري العربي معتبرا من خلاله أن الشكل الأجمل للشعر العربي لم يكتمل بعد ونحن أمام تحد لإكمال هذا الأمر.

أمير سماوي: الشعراء العرب أمام تحد كبير